خطاب الانتماء:
«ما معنى أن يكون المرءُ عالم اجتماع في أيامنا؟» (*)

مصطفى محسن (**)

عالم اجتماع ومفكر عربي، الرباط ـ المغرب.

أيها «**الأصدقاء الخلّص للسوسيولوجيا**» المنظمون لهذا المحفل الفكري التكريمي الحميمي الصادق، البليغ في دلالاته وأهدافه العلمية والإنسانية النبيلة...

أيها المحتضنون لهذه المبادرة الطيبة، من مؤسسة ومسؤولين وهيئات وفاعلين وجهات داعمة مختلفة المهام والمشارب...

أيها الحضور الكرام، **من مفكرين ومثقفين** وزملاء وطلبة ومهتمين...

حُيّيتم تحية الأخوة المخلصة، وعمتم مساء خير ومحبة وشكر وإكبار للجهود التي أفضت بنا إلى هذا الجمع النوعي المعبّر، وإلى أن أمْثل فيه بين أيديكم محفوفاً بالكثير من طقوس ومشاعر الاحتفاء والتكريم...

لا أكتمكم أيها الأفاضل أنني قلّما أدري لماذا تهاجمني ــ كلما وجدتني في وضعية مؤثرة كهذه التي تطوقني الآن ــ أمواجٌ عاتية غالبة من ذكريات الماضي ولواعج الراهن وهواجس المستقبل...، يذكيها تواشج غريب بين هموم الذات ومواجع وأحلام الوطن والأمة والإنسان... وهكذا أُلفي نفسي، في غير ما شرط إنساني مشابه، مفتقداً ــ أو أكاد ــ بوصلة وصرامة التفكير، مقذوفاً بي في مفازات تيه جارف عتي، حيث تتقاذفني التداعيات والذّكَر والأفكار والمشاعر... مجنحة تترحّل بي بين أطرافها القصية بلا ضوابط أو حدود، وإنما وفق منطقها الخاص الذي تخلّفه اللحظة وشجونها الكثار. وذلك على الرغم من كوني، في موقع أو ظرف كهذا، كثيرا ما أُجهد الفكر والوجدان في أن أجعل من «**خطابي**»، وعلى قدر المستطاع والممكن، ملائماً «لمقتضى المقام». وهو بهذه المناسبة خطاب انتمائنا جميعاً إلى حقل السوسيولوجيا: قيماً علمية واجتماعية متآزرة.

(*) في الأصل، هذا المقال هو نصّ الكلمة التي ألقاها السوسيولوجي د. مصطفى محسن في افتتاح التظاهرة الفكرية التكريمية، التي أقامتها «جمعية أصدقاء السوسيولوجيا» احتفاءً بفكره، وذلك في إطار الدورة الثالثة للمنتدى الوطني للفكر السوسيولوجي بالمغرب، التي عُقِدَت في تطوان بين ٦ و٨ نيسان/أبريل ٢٠١٢.

(**) البريد الإلكتروني: mostafamohsine@hotmail.fr.

لذا، أستسمحكم أيها الإخوة، في أن تمنحوني من سعة الصدر وأريحية التقبل ما يتيح لي فرصةَ القول المنساب المتحرر من مجمل القيود المقننة لمجريات الكلام ومسارات التفكير الصارم المقنن، حتى وإن كنت أهدف إلى أن أجعل من هذه الأوراق ومحمولاتها عناصر أو مقدمات أو مداخل أولية للإجابة عن هذا السؤال، سؤال الوجود والهوية والانتماء، الذي أقترحه عليكم عنواناً إشكالياً لها: «**ما معنى أن يكون المرء عالم اجتماع في أيامنا؟**» والمقصود بكلمة «أيامنا» هو هذا الزمن العربي الهادر، الحابل بشتى صنوف التحول، وانهيار الكثير من القيم المادية والرمزية، ومن الآمال والتطلعات المصادرة، التي أنعش بعضها هذا الحراك الثوري الراهن الذي ندعوه: «**ربيعا عربيا**» أملاً في أن يُحيي «أرضنا اليباب»، وأن يمحق ذلك الجدب المميت الذي تجذر في مجتمعاتنا في النفوس والعقول والممارسات والعلاقات... فلعل ذلك يُزهر في ربوعنا المقفرة خيراً عميماً قابلاً واعداً بالخير وبالمستقبل المشرق الجميل!

ولعل ما عمق انهمامي بأبعاد ومدلولات السؤال الإشكالي الآنف هو أني ــ وأنا أدوّن، قبل بضعة شهور، «بعض الهوامش والأسئلة السوسيولوجية على متن الربيع العربي» المتفجر الآن ــ قد صُدمت بما يشبه غياب الفكر السوسيولوجي، أو على الأقل بحضوره الباهت، في معترك مواكبة بحثية فاعلة مُسائلة لما يجري من ضروب الاحتجاج أو الثورة أو التحول في بلداننا العربية بالذات وهي تسعى إلى أن تخلع عنها أردية فواتٍ حضاري مريع، لتخلق مجتمعاً جديداً، ولتكتب بإرادتها تاريخاً جديداً ممهوراً بالقيم الأصيلة للحرية والعدالة والديمقراطية والحداثة والكرامة الإنسانية... لذا فقد بادرتُ وقتها إلى كتابة «**بيان أو نداء**»، أو ما في حكم ذلك، وجّهتهُ إلى علماء الاجتماع العرب داعياً إياهم إلى ضرورة تحمل مسؤولياتهم العلمية والتاريخية، والالتزام بما ينتظر منهم من أدوار ومهام، ولا سيما ما يتعلق بالتفكير في تفاعلات الشرط العربي الثوري المحتدم الآن، ومحاولة الفهم العميق لبواعثه وجذوره، وللقوى الفاعلة فيه، ولدروسه ونتائجه وتداعياته... وكذلك استشراف ما يُتوقع أن يكون له من آثار على مسارات التنمية والتحديث والبناء الديمقراطي في مجتمعاتنا، بل وأيضا على «**مشروع النهوض القومي والتجدد الحضاري**» للأمة بشكل أعمّ وأشمل. وما يعترض بناءه من مصاعب فكرية وسياسية، ومن عوائق ذاتية وموضوعية متعددة.

أولاً : المطلوب من عالم الاجتماع

أن يكون المرء عالمَ اجتماع في ظل أوضاعنا الفكرية والتربوية والسوسيوحضارية الراهنة، فإن عليه أن ينتهج نقداً ابستمولوجياً واجتماعياً عقلانياً وهادفاً إلى مقاومة مجموعة لا يستهان بها من القيم والرؤى والمواقف وأساليب البحث والتكوين والتدريس والممارسات المختلة التي قد تنزاح بالعمل العلمي الجاد عن الأصيل من قواعده وأعرافه وأخلاقياته وأغراضه المنشودة... لذا يغدو مطلوباً من عالم الاجتماع، في بعض شروط

سياقاتنا هذه، أن يتخذ، كما سلف الذكر، موقفاً نقدياً صارماً، ومنفتحاً وحوارياً في الآن ذاته، من الإشكالات النظرية والمنهجية والمعرفية والاجتماعية المعقدة الآتية، وذلك حتى نمتلك بالفعل جدارة الانتساب إلى علم الاجتماع: فكراً وممارسة اجتماعية فاعلة مُنتجة:

● مقاومة بعض أشكال «**التمهينية**» الضيقة، التي غالباً ما تحنّط ممارسات عالم الاجتماع في أدوار تعليمية أو تكوينية أو بحثية، تظل، رغم أهميتها المعرفية والتربوية، محدودة الآفاق، ومن دون الانفتاح المطلوب على محيطها العلمي والاجتماعي في ترابطاته المحلية والكونية إلا بالقدر الذي تسمح به بعض الملابسات والإمكانات والظروف وتحولات الواقع المعني. وهكذا تظل هذه «**الحرفية**» المحدودة أحد أهم أعطاب النظرية والمنهج والتطبيق.

● التفكيك النقدي لما قد يُفضي إليه ذلك من «اختبارية» فجّة وساذجة، مبخّسة للعديد من أنماط ومستويات الإبداع النظري والمنهجي، قي مقابل «امتداحية» مغالية للعمل التطبيقي ولبعض عُدده وأدواته وتقنياته المنهجية، وهذا قد لا تكون له فوائد معرفية كبرى بالقدر الذي تكون فيه هذه «**المنظومة الوسائلية**» منضوية ضمن شروط إطار نظري. وذلك على اعتبار «**النظرية**»، في كافة مسارات ومجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية، بمنزلة «**مرشد عمل ودليل توجيه**» للتفكير والممارسة العلمية في آن. لذا فإن المبالغة في تمجيد التحصّن بهذه الاختبارية في مواجهة الانزياحات النظرية للأيديولوجيا قد تمسي هي ذاتها منزلقاً نحو السقوط في مفاعيل الأيديولوجيا، التي من الممكن أن تتجلى في «**جبرية سوسيولوجية**» متطرفة، مكرسة بدورها لـ «**دوغمائية**» منغلقة لا تنظر إلى الواقع موضوع التفكير والمقاربة إلا من زوايا اهتمامها أو مصالحها الذاتية، أو توجهاتها النظرية والمنهجية، والتي تظل ــ مهما تمسكت بموضوعية مثالية أو موهومة ــ موسومة/ موصومة بالأيديولوجيا، بقدرٍ ما وبشكل معين، كما هي حال المعرفة في حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية بشكل عام.

● المجابهة النقدية أيضاً لما ينجم عما سبق أحياناً من بعض التوجهات ونماذج الفعل التي تنحو نحو «**تسليع المعرفة وتبضيع العلم**»، وبخاصة في إطار توسع بعض أنماط «**الطلب الاستهلاكي**» لما توفره بعض «**البحوث التطبيقية**» من بيانات ومعطيات اجتماعية متنوعة لبعض مكاتب الدراسات ومراكز البحوث ومؤسسات المجتمع المدني، وذلك بغرض توظيفها في بعض مشاريع التنمية والتحديث والإصلاح... غير أنه إذا كان من المفترض اعتبار هذه البحوث فُرصاً للتكوين وتدريب الكفاءات وتطوير الممارسة العلمية والإفادة العملية منها، فإن ذلك لا يمكن، في تقديرنا، أن يتحقق بشكل إيجابي ناجع إلا إذا انتظم في مكونات مشروع مجتمعي متكامل، متضمن لسياسات تربوية وعلمية وسوسيواقتصادية واضحة المعالم، متناغمة المقومات والأسس النظرية والمنهجية والمقاصد والرؤى الفكرية والاجتماعية والحضارية الموجهة لما أصبح مطلوبا في راهننا المعولم من «حكامة معرفية واجتماعية» عقلانية متكاملة.

● ملحاحية إعادة النظر في مجمل آليات اشتغال **المؤسسة الجامعية**، والعمل على إعادة اكتشاف أدوارها العلمية والتربوية والثقافية والاجتماعية الخطيرة، ولا سيما في ضوء تحولات اللحظة الحضارية الراهنة المعولمة، وما أصبح يتسم به «النظام العالمي الجديد» من بروز دال ومؤثر لـ «**مجتمع المعرفة الجديد**» بكل متغيراته ومقوماته المعرفية والقيمة والتقنية، وما يتواشج معها من مستجدات في مجالات التعليم والتكوين والتشغيل والمعلوميات والإعلام والتواصل الاجتماعي، وفي العديد من العلاقات والتبادلات المادية والرمزية، والموضات والسلوكات وأنماط العيش والتعايش والاستهلاك... إلخ. هذا ما أخذ يتجه نحو «**ثقافة كونية جديدة**» معبّرة، ضمن حدود ومواضعات سوسيوحضارية معينة، عن «**مواطنة عالمية**» تصبو إلى أن تكون عابرة للقوميات والحدود والسياقات الثقافية والسياسية المختلفة، ناظمة للكل الكوني العام.

لذا، وحتى تكُفّ المؤسسة الجامعية عن أن تظل مرتهنة لأدوار ووظائف وقيم تربوية وثقافية وعقليات وممارسات تعليمية تقليدية متهالكة، رغم فائدة بعضها ــ ولا سيما في ما يتعلق بمحتديات ومناهج تدريس علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عموماً ــ فإن عليها، بالموازاة مع أهمية الحفاظ على بعض مهامها المعرفية والثقافية والاجتماعية المؤسسة لجذور وغايات «فكرة الجامعة» في بدايات تبلورها التاريخي، أن تنفتح أيضا على مكونات محيطها العام والتبادل معه، مجددة ومطورة لبعض شعبها وتخصصاتها وبرامجها ومناهجها الدراسية النظرية والتطبيقية. وذلك وفق ما أصبحت تمليه تحولات ومتطلبات أسواق الشغل ودورات الاقتصاد وآفاق الاندماج المهني والثقافي والسياسي والاجتماعي للطاقات الشبابية المؤهلة، بما هي «**رأسمال بشري**» يفترض في المؤسسة الجامعية وغيرها من مؤسسات التربية والتكوين والتدريب أن تستثمر فيه بشكل عقلاني رشيد، وضمن سياسات تربوية واجتماعية متكاملة وهادفة، لتجعل منه «**مخرجات إنسانية مواطنة**»، ممتلكة لقدرات وكفايات الإبداع وجانبيات «التوجيه المطابق السليم»، والتأهيل المناسب، كي يجعل منها دعامة مفصلية لمشاريع التنمية والتحديث والتحول الديمقراطي في مجتمعاتنا الناشئة، التي لا يزال جُلّها أسير أوضاع الاستبداد والفساد والتبعية والتخلف، وهذا كان من بين أهم عوامل الانتفاضات الثورية العربية الراهنة.

● وتأسيساً على كل ما سبق، فأن يكون المرء عالم اجتماع في زمننا المغربي والعربي هذا، معناه أنه مطلوب منا جميعاً، نحن المشتغلين بهذا العلم والمهتمين به، تكثيف وسائل التصدي لما يعيشه من **غياب عفوي أو مغرض أو تغييب أو إقالة قسرية** في ظرفيتنا الحالية هذه. وهي وضعية لا تخص فقط ميادين البحث والإنتاج وتحقيق التراكم المفيد والمساهمة في جهود إنتاج المعرفة المراد تكوينها حول المجتمع المعني، الأمر الذي تكفلت به أحياناً علوم اجتماعية وإنسانية أخرى ، حتى ولو لم تكن مؤهلة لذلك نظرياً ومنهجياً كما يجب، وإنما تمتد وضعية هذا الغياب لتشمل مجالات الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية والثقافية وقضايا الهامش، وأساليب وخطط وضع السياسات العمومية ونظم الحكامة

وبرامج وخطط التنمية، ومجمل مسارات التغيير والتحديث، ومستويات ومراحل وقوى ومراكز استصدار وصناعة وتصريف وتقييم وتقويم الكثير من القرارات التي ترتبط بتدبير مختلف دواليب ومؤسسات ومرافق الشأن المجتمعي العام. إنها عُزلة لا تعود عواملها وتداعياتها السلبية إلى عالم الاجتماع وحده، وإنما هي منتوج لتداخل الذاتي والموضوعي، وبالتالي فهي تشكل «**وضعية سوسيومعرفية**» تنظمها عملية تشابك علائقي بين جملة من المقومات والخصوصيات التربوية والثقافية والسياسية والاجتماعية المُحيلة على سياق سوسيوحضاري محدد في الزمان والفضاء، وهي كلها شروط لم توفر للمعرفة العلمية بعامة، والسوسيولوجية بخاصة، ممكنات التجذر العميق في مكونات البنية الاجتماعية، ولم تتح للاهتمام النظري والعملي بها، بالتالي، فُرص الارتقاء إلى مستوى «**ثقافة مجتمعية**» شمولية ناظمة وموجهة للتفكير والممارسة، ومكرسة لقيمة ومكانة العلم ولنجاعته المعرفية والتاريخية، كما يستفاد من دروس وتجارب غربية متقدمة أمست الآن نماذج اقتدائية بامتياز!

● إنها، بالفعل، أيتها الأجيال الشابة والمخضرمة من علماء الاجتماع، ومن مختلف الباحثين والمهتمين، ملامح «**أزمة**» خانقة، هذه التي تعيشها السوسيولوجيا في مجتمعنا حالياً. وهي، كما ينبغي الفهم الموضوعي السليم، ليست مجرد أزمة «**قطاع علمي أو معرفي**» كما قد يختزلها البعض، وإنما هي، في أبعادها ومدلولاتها الاجتماعية العامة «**أزمة بنيوية مركبة**»، أزمة قيم وهياكل وبُنى وسياسات واختيارات ورُؤى، أي «أزمة مجتمع» لا يزال في أوضاعنا مُستغرقاً في متاهات البحث عن مسار تطور وتحول ونماء، وعن بعض معالم هُوية «**مشروع مجتمعي وحضاري**» **واضح المكونات والأهداف والقيم والرهانات وآليات الاشتغال والتبادل مع مُعطيات المرحلة وتحدياتها الجسام، وذلك بالمدلول الدينامي الجدلي لمفهوم** «**المشروع**» وليس بالمعنى المثالي أو السكوني الجامد.

وإذا كانت هذه الأزمة لا تقتصر فقط على وضعية السوسيولوجيا في مجتمعاتنا «**النامية**» وإنما تتعداها لتمتد إلى المجتمعات الغربية، التي شكلت المهاد السوسيوثقافي والتاريخي لنشأة وتطور هذا العلم، فإن من أهم ما يميز هذه المجتمعات عن بلداننا هو امتلاكها جملة وازنة من الشروط ومقومات التنظيم والعقلنة والمَأْسَسَة والحكامة والتخطيط والتدبير وإدارة الجودة وتقييم الأداء والمنتوج. وذلك ضمن رؤى ومشاريع وسياسات ثقافية وعلمية واجتماعية واقتصادية منسجمة، بقدر ما، في أسسها ومضامينها ومرجعياتها الموجهة. الأمر الذي يمنحها قدراً لا يستهان به من الجدارة أو الاقتدار، بحيث يمكنها تطويق معين لهذه الأزمة المعنية هنا، بل وتحويلها، ضمن حدود ومواضعات معينة إلى أفق للتطوير والتجديد والنقد والنقض والاستيعاب والإبداع والتجاوز، وذلك على شاكلة ما عرفته تواريخ العلوم الحديثة المختلفة من «أزمات في الأُسس» كانت فاعلة وحاسمة التأثير في تطور وتقدم وتجدد أنساقها وبراديغماتها ومعارفها وأطرها النظرية والمنهجية والسوسيوحضارية المتعددة.

ولعل في العودة إلى قراءة متأنية للكثير من طروحات **ماركس، وفيبر، ودوركايم، وهابرماس، وبورديو، وآرون، وتورين، وبودون، وغيدنز** وغيرهم، ما يفيد في التعرف إلى بعض خلفيات وعوامل وأبعاد وتداعيات أزمة السوسيولوجيا في المجتمعات الغربية بالذات، وإلى بعض أشكال وآليات مجابهتها وتخطيها واستثمارها معرفياً واجتماعياً، والمقارنة النقدية في ذلك بين الـ (هنا) والـ (هناك).

غير أن تفاعلات هذه الأزمة في مجتمعنا لم تعد تقتضي فقط مجرد الوعي الإبستمولوجي والاجتماعي بها، وإن كان ذلك شرطاً لازماً لأي فهم معمق لها ولأي تعامل مطلوب معها. وإنما أصبح الوضع يستلزم، من عالم الاجتماع، تحديدا ضرورة الاجتهاد في اجتراح الآفاق الممكنة لاحتواء هذه الأزمة وتجاوزها بواعثَ وجوانبَ وأبعاداً ومستتبعاتٍ متباينة في إطار مساعٍ وجهود ومبادرات فردية وجماعية ومؤسسية تستهدف تحقيق «**نهوض علمي وحضاري**» وطني وقومي متكامل المسارات وأنماط ومستويات التشارك والاعتماد المتبادل، متناغم المرجعيات والبراديغمات والأطر المعرفية والاجتماعية الموجهة.

ثانياً : أفكار في القضايا والأوضاع الشكلية

ولذا، فإنه يبدو لي أن من مسؤوليات، كون المرء عالم اجتماع في أيامنا، أن يبادر إلى التفكير الجاد في القضايا والأوضاع الإشكالية الآتية، والتي لا تسمح المناسبة هنا سوى بالإشارة إلى بعض أهمها وأبرزها، وبتركيز شديد لا يتغيّى بالضرورة أي تحليل مفصّل أو توسّع أو إلمام شمولي بها. ونوجز ذلك في ما يأتي:

١ ـ الاجتهاد في إعادة الروح والاعتبار والمعنى لـ «القيمة النقدية لعلم الاجتماع»، المتمثلة في أدواره في تحليل وتفكيك ونقد ونقض وإعادة تركيب أو تشييد للبنى الفكرية والاجتماعية من رؤى ومواقف وتصورات وفهوم وعلاقات ومؤسسات وأشكال تفاعل وتبادل، والكشف عن الإواليات الإبستمولوجية والسوسيوثقافية والتاريخية الظاهرة والمضمرة، والتي تتحكم في سيرورات اشتغالها وإنتاجها وإعادة إنتاجها: آليات ومضامين وإدراكا لمحددات ومكونات وظواهر الواقع الاجتماعي المبحوث المتطور والمتحول على الدوام.

وهكذا، فإن علم الاجتماع، حسب **آلان تورين** وغيره من الرموز التي سبقت الإشارة إليها قبلاً، لا يمكن حصر مجال اشتغاله بموضوع محدد فقط، وإنما بالعمل النقدي الذي يوجه ويُميز طبيعة تدخله واشتغاله، مستندا في ذلك على موجهات وقواعد وقيم ومعايير وأعراف وتقاليد وأخلاقيات ومناهج البحث العلمي المنظم التي تتواضع عليها أُطر وأطياف «**المجتمع العلمي**» في سياق معرفي واجتماعي محدد في الزمان والمكان. إنها الأُسس والآليات التي تجعل من «**المعرفة السوسيولوجية**» المتولدة عن جهود عالم الاجتماع، لملاحقة ظواهر واقع اجتماعي هو بطبيعته دينامي متغير، ممتلكة لبعض القدرة على إقامة «**تباعد نسبي**» بينها وبين **الأيديولوجيا** ــ ولا سيما في بُعدها الانتقاصي بما هي في بعض جوانبها وعي زائف بالواقع أو تحريف له، وفق مصالح ومعتقدات ورؤى معينة للعالم

ـــ وأيضاً بينها وبين شتى أشكال «**المعارف الاجتماعية**» العامة، التي تقوم في أُسس انبنائها وآليات إنتاجها وترويجها وإعادة إنتاجها على التجربة العينية والمعيش اليومي، وعلى قيم ومقومات «**الحس المشترك**» وما يعتمده من منطق خاص، أو طرائق عفوية أو موروثة أو شائعة ومتداولة، في سيرورات الافتراض والتنظيم والبرهنة والاستدلال والحجاج والإقناع والتأثير وربط المقدمات بالنتائج، بحيث يُفترض أن يختلف ـــ جزئياً أو كلياً ـــ عن المعرفة السوسيولوجية السالفة الذكر، والتي تظل، رغم تحصنها بالأُسس والقواعد العلمية المنوه بها، مخترقة بالعديد من عناصر وتأثيرات الأيديولوجيا والحس المشترك، ومن جوانب النسبية والقصور، كما تعلمنا ذلك «**سوسيولوجيا المعرفة**»، وبخاصة في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، فضلاً عن العلوم الدقيقة ذاتها، ولعوامل واعتبارات معرفية إبستمولوجية واجتماعية مُتَشعّبَة ليس من أهداف هذه الكلمة تفصيل الحديث عنها والبحث فيما لها من أبعاد ودلالات وآثار.

٢ ـ العدة النقدية

ولهذه الاعتبارات المسوقة أعلاه، فأن يكون المرء عالم اجتماع عليه أن يجتهد أيضا في إعمال «**عدته النقدية**» في تحطيم الكثير من «**الأوثان أو الأوهام أو الأضاليل المعرفية**» التي أضحت تتداولها في مجالات المشهد الفكري والإعلامي والثقافي والسوسيوتربوي العام مجموعة من الطروحات المتنامية الشائعة في مجتمعنا، والمعبّرة، في خلفياتها الرؤيوية وبراديغماتها، عن نزعات إطلاقية أو اختزالية أو دوغمائية أو ذاتوية أو أحادية المنظور أو إسقاطية فجّة وساذجة للعديد من المفاهيم والنظريات والمناهج ونماذج التحليل والتفسير والتأويل والفهم والتنبُّؤ، وهو ما لا يُنتظر منه سوى تنميط تجميدي للتفكير وتحنيط مفقر للممارسة، ولا يمكن تجاوزه إلا عبر التسلح بمنظور نقدي جدلي حواري وتبادلي منفتح، يؤكد، في خصائص ومقومات وحدود «**المعرفة السوسيولوجية**»، على مواصفات وقيم النسبية والمرونة والدينامية وتعددية الأبعاد وتكامل أصناف المعارف والنظريات والمناهج ونماذج التحليل والتطبيق والتخصصات والاهتمامات والأُطر الإرشادية والمرجعية الموجّهة، وبالتالي على قابلية هذه المعرفة لـ «**التفنيد والدحض والتجاوز**»، كما تؤكد ذلك «**إبستمولوجيا العلوم الإنسانية والاجتماعية**»، بل وكذلك تواريخ العلوم بشكل أعم وأشمل.

٣ ـ إعادة الاعتبار للوظائف النقدية للسوسيولوجيا

ولعل من أهم وأنبل ما نتوخاه من هذه الدعوة إلى إعادة الاعتبار للوظائف النقدية للسوسيولوجيا ـــ ونحن في هذا الملتقى العلمي المقام لتكريم الانتماء إليها ـــ هو البحث عن الشروط الممكنة لتجاوز ما أصبح يعتور أوضاع العلوم الاجتماعية كافة في مجتمعنا المغربي والعربي على السواء من استقالة شبه تامة للعالم أو المثقف من النقاش العمومي، ومن أي انخراط ملتزم بالشأن السياسي والاجتماعي والإنساني العام. وذلك في مقابل هيمنة تهامت

توجهات وممارسات تعمل باستمرار على ترسيخ ما وسمناه آنفا بأنه تصورات أو أنماط تعاملات مكرسة لوعي «مقاولاتي» انتفاعي بالمعرفة والبحث العلمي كما لو كانا مجرد أشكال من البضائع أو السلع أو الخدمات التي يتم إنتاجها وإعدادها وفق مقتضيات سوق خاصة، خاضعة لأساليب معينة من **الماركيتينغ** وتجاذبات وعلاقات العرض والطلب والوفرة والندرة والمنافسة... إلخ. إنها أوضاع متهرئة في مجملها، أو بعضها على الأقل، تتدنّى بقيمة ومكانة عالم الاجتماع بالخصوص والمثقف بشكل عام، من مستوى «**منتج للمعرفة**» ومساهم في تطوير العلم بالأساس، إلى مستوى وضعية «**وكيل تجارة أو وسيط تسويق**» لا تتعدى مهامه حدود بائع معلومات أو معطيات أو مقدّم استشارة أو خبرة قد لا تستجيب، بالضرورة، للأهداف التربوية والعلمية والاجتماعية لعالم الاجتماع أو المفكر الملتزم عامة، بل قد تتناقض معها أحيانا تمام التناقض. هذا مع التذكير، من جديد، بأن نقدنا لهذه الأوضاع المأزومة لعلم الاجتماع ولغيره من علوم الإنسان والمجتمع في راهننا الوطني والقومي بالذات لا يعني تبنينا لأي موقف عدمي تعميمي من أي منظور اقتصادي لـ «**المعرفة العلمية**» ولوظائفها العملية/ الاستعمالية. وذلك بشرط اندراجها في إطار «**سياسات علمية وسوسيواقتصادية وإدارية وتربوية وثقافية**» واضحة المعالم، رافدة لـ «**تخطيط استراتيجي**» لتدبير مستجدات التغير ولإدارة برامج ومشاريع التنمية الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية الشاملة المتكاملة. ولا سيما في سياق تحولات نوعية لزمن جديد معولم، أمست فيه الهيمنة المتصاعدة لمفاهيم وقيم وسياسات وأساليب الحكامة والجودة والتنافسية وتحرير الأسواق وتثمين بحوث التنمية ودراسات «**الخبرة والجدوى والتشخيص والتدخل والتقييم**» ترشيداً للقرار وتدعيماً وإغناء وعقلنة للممارسات الاجتماعية والحضارية... وذلك على الرغم مما يمكن توجيهه لهذه العُدة المفاهيمية والأدواتية من نقد قيمي ومنهجي صارم متعدد المرجعيات والمواقف الفكرية والإنسانية .

٤ ـ ذكاء نظري وفطنة معرفية وسياسية

إن من أهم ما نصبو إلى أن نخلص إليه من كل ما سبق هو تأكيدنا أهمية النظر إلى عالم الاجتماع، لا كمجرد صاحب مهنة أو حرفة أو اختصاص، وإنما، بالإضافة إلى كل هذه المقومات الوازنة، على اعتبار أنه «**مثقف**»، **بالمعنى العضوي** للكلمة، أي بما هو صاحب مبادئ أو حامل لرسالة أو قضية، يُؤمن بها، يدافع عنها، ويلتزم بها: وعياً نظرياً وسلوكاً عملياً في الواقع الملموس، وإن بدا ذلك «**مُزعجاً**» لبعض القيم والسلط والنظم السائدة، المتحفّظة على الوظائف النقدية للسوسيولوجيا.

وبهذا المعنى ، فلكي يكون المرء عالم اجتماع «**حقيقياً وأصيلاً**» فإنه يفترض فيه امتلاك ذكاء نظري وعملي نفاذ، وفطنة معرفية وسياسية، واقتدار نقدي كاف، أي كل ما يمنحه مؤهلات التحليل والتركيب وإعادة البناء، وذلك البعد الفكري الخلاق الذي يسميه **رايت ميلز** بـ «**الخيال السوسيولوجي**» والذي يشكل، بالنسبة إلى الباحث، تلك الحصانة النظرية والمنهجية التي تمكنه من شحذ الوعي وتطوير الإبداع، ومن الحذر أو

التحوط من السقوط المجاني في غمار «**رداءة فكرية واجتماعية**»، أو في متاهات حرفية قاصرة أو تجريبية فجة أو اختزالية مبتذلة، ما من شأنه، كما أسلفنا، أن يشكل، أمام سيرورات وجهود إنتاج وتطوير وتجديد المعرفة العلمية، وهذا ما يدعوه **غاستون باشلار** «**عوائق إبستمولوجية**» منتجة للعديد من «**الكوابح**» النظرية والمنهجية الذاتية منها والموضوعية، والتي لا يتحرر الباحث من آثارها وتبعاتها على مضمون وعلمية ونجاعة المعرفة المعنية هنا إلا عبر تملكه لذلك «**الخيال السوسيولوجي**» النقدي الآنف الذكر.

٥ ــ عمل نضالي مسؤول

إن تخليص السوسيولوجيا في مجتمعنا مما غدا يتهددها من منزلقات ومخاطر الانحدار إلى مهاوي النزعات والتصورات والمواقف الابتذالية المتحفظ عليها فيما سبق، والرهان على أن يجمع عالم الاجتماع في أدواره ووسائل عمله بين «**مواصفات العالم وخصائص المثقف**»، مع الوعي العميق بما بين العلم والثقافة من صلات وتداخلات وكذلك من مسافات وحدود وتمايزات، إن ذلك هو ما يمكن أن يمنح فعل الممارسة السوسيولوجية بعض شروط وممكنات وخاصيات «**العمل النضالي**» المسؤول، المتفاعل مع متطلبات ومتغيرات وقضايا اللحظة السوسيوتاريخية والحضارية المتعيّنة في الزمان والمكان، محققاً بذلك فرص تطوير العلم وتجديد المعارف والقيم الثقافية والممارسية في آن. ولعل في تاريخ السوسيولوجيا ومجمل العلوم الاجتماعية والإنسانية من نماذج ومسارات العمل العلمي الملتزم بقضايا الحرية والعدالة والمساواة ما يقدم، في هذا المجال، دروسا مفيدة في مقاومة التخلف والاستبداد والفساد وانتهاك حقوق وكرامة الإنسان.

٦ ــ نقد حضاري تجاوزي

وإذا كانت صفوة من الأجيال المؤسسة في حقول العلوم الاجتماعية في وطننا العربي بعامة قد حاولت جاهدة، وحسب إمكاناتها وشروطها وإكراهاتها الذاتية والموضوعية، تملّك **استيعاب نقدي للمنتوج الكولونيالي والغربي عامة في هذه الحقول** من جهة، والبحث عن الآفاق المعرفية والتاريخية المُمكنة للقطع معه وتجاوزه بـ «**بدائل علمية جديدة**» من جهة أخرى ــ مما لم نتناوله بما يكفي من القراءة والمراجعة النقدية والتثمين المستحق ــ فإن ذلك ينبغي، في تقديرنا، ألا يُفضي بجهودنا العلمية والتربوية والتكوينية إلى أي تبنّ لأي تصورات أو نزعات ذاتوية ضيقة كثيرا ما تتحول أو تنحرف بالتفكير نحو «**خصوصانية**» **إقصائية أو شوفينية متطرفة**. وذلك من قبيل بعض أشكال الدعوة إلى تأسيس «**علم اجتماع عربي أو علوم اجتماعية عربية**». وإذ تقوم هذه الدعوة على محاولات «**نقد حضاري تجاوزي**» للخلفيات الاستعمارية والسوسيوثقافية والفكرية لـ «**المركزية الغربية**» ومنظوراتها الاستشرافية الفوقية للآخر المغاير الهامشي والمتخلف... فإنها تقع في منزلقات إعادة إنتاج ما يكرس هذه المنظورات من وجهة نظر الآخر العربي أو العالمثالثي، أي وفق آليات حجاج واستدلال أو تموقف قائمة على «**منطق**

استشراق معكوس»، هو بدوره متمركز حول الذات، متمحور حول خصوصياتها الذاتية الأصيلة المتفردة، التي تُبرز مجتمعاتنا وكأنها كيانات معزولة/منعزلة أو منفصلة بشكل شبه مطلق عن سياق التاريخ الكوني وعن انتمائها الإنساني العام. وذلك في إطار تبني الدعوة إلى «**استقلالية فكرية مؤدلجة**» مفتقدة للكثير من الأُسس والمبررات.

إن ما نحن في حاجة ماسة إليه في مجتمعاتنا العربية تحديدا هو تبني الدعوة إلى بناء «**سوسيولوجيا نقدية في أو/للعالم العربي**». وهي دعوة تختلف في المنطوق والمضمون عن نظيرتها المنتقدة الآنفة. ذلك أنها لا تسعى إلى تدعيم أي نظرة «**إقليمية أو جهوية أو قومية**» للعلم إقصائية منغلقة، بقدر ما تطمح إلى اعتماد رؤية جدلية نقدية وحوارية منفتحة بين الخاص والعام، والذات والآخر، والمحلي والعالمي بما يمكن مجتمعاتنا من إنماء وترسيخ وتطوير «**علم اجتماع أو علوم اجتماعية وإنسانية**» مندمجة، من جهة، في شروط سياقاتها المحلية الخصوصية فعلاً وانفعالاً ديناميكيا منتجا، ومتجادلة ومتواصلة، من جهة ثانية، مع أسس ومقومات ومقتضيات **المشروع المعرفي للعلوم تلك بما هو مشروع كوني إنساني**، تنتظمه على الدوام جدلية الكثير من عناصر الوحدة والتنوع، والتماثل والتمايز، والتداخل والتعدد والاختلاف في مجالات المعرفة كما في مقومات البنى الاجتماعية وتجارب التاريخ ومجمل المنتجات المادية والرمزية للنماذج الحضارية المتنوعة.

٧ ــ تحقيق «المَأْسَسَة المعقلنة الهادفة»

وعلى علماء الاجتماع في محيطنا العربي مواصلة جهود أولئك الرواد الأوائل، تلك التي كانت بداياتها منذ عدة عقود خلت، ولا سيما بعد استقلال بلداننا. ولعل من أهم ما يستوجبه ذلك ــ إضافة إلى ما أنتجوه من تراكم مفيد ــ ضرورة العمل الجماعي المنظم على دعم وتطوير دور الهيئات والجمعيات والروابط العلمية، والمقاولات المختصّة والمهتمّة، والمؤسسات الأكاديمية ومُجمل فضاءات التربية والتعليم والتكوين، ومختلف المنظمات المدنية والسياسية والثقافية الموازية، وذلك بالنظر إلى ما أصبح لهذه الأطر والفضاءات من مكانة وازنة ومن وظائف هامة وحاسمة في المجتمع الحديث.

ونحن، في هذا الميدان بالذات، أحوج ما نكون إلى تحقيق مسعى ذي دلالة هامة وشارطة، ألا وهو تحقيق «**المَأْسَسَة المعقلنة الهادفة**» المنظمة لآليات اشتغال البُنى المؤسسية الآنفة، وتأطيرها في منظومات أو أنساق من المعرفة النظرية والعملية ومن الخبرات والتقانات والتجارب والأعراف والتقاليد وأساليب الإدارة والتنظيم والعمل والتبادل والتعاون، وكذا الأخلاقيات والقيم والمبادئ الموجهة للتفكير والممارسة معاً، وذلك بُغية رفد التراكم تلو التراكم، وتجاوز الاستفراد بالمبادرة أو الرأي أو الموقف أو القرار، واللجوء اللاعقلاني المتكرر لتلك «**البدايات أو القطائع الصفرية**» التي، غالباً ما تلغي السابق لتنطلق أحيانا من لا شيء... إلخ. الأمر الذي كثيراً ما يؤدي بممارسات معينة إلى مآلات السقوط في الفوضى وتكرار التجارب الفاشلة والمراوحة اليائسة في الحلقات المفرغة من

محاولات الإصلاح أو التجديد في مختلف ميادين التربية والثقافة والتكوين والتشغيل وإدماج النساء والأطفال والطاقات الشبابية المؤهلة، ومجابهة المشكلات المتفجرة لـ «**المسألة الاجتماعية**» من بطالة وفقر وتهميش وهشاشة اجتماعية وانحراف وتدهور لمستوى العيش ولحقوق الإنسان، وبخاصة لدى الطبقات الوسطى وغير المحظوظة، فضلا عن ضرورة تطوير البحث العلمي والعمل الجمعوي والمشاريع العلمية والاجتماعية بشكل أعم وأشمل.

وكما نحن محتاجون إلى ترسيخ هذه «**المَأْسَسَة**» في مجتمعنا أولا، فنحن أيضاً بحاجة أكيدة إليها على المستوى القومي العربي. وذلك استهدافا لربط جسور التواصل والتكتل والتعاون والتكامل بين أهم التوجهات والسياسات وبرامج وخطط وشراكات الإنماء التربوي والعلمي والسياسي والاجتماعي، وكذلك بين مجمل المؤسسات والفضاءات الأكاديمية والجمعوية السالفة الذكر. ما يُنتظر منه أن يشكل دعامة مفصلية للتنمية الإنسانية والاجتماعية المستدامة المتكاملة، ومستنداً نوعياً لـ «**مشروع النهوض القومي العربي والتجدد الحضاري**» الشامل، وبخاصة بالتزامن مع ما يجري حاليا في واقعنا العربي من حراك ثوري فريد، غير مسبوق في تاريخنا المعاصر: سياقات جديدة، وعوامل، وفاعلين، وتفاعلات، وتبعات وتداعيات مستقبلية ممكنة.

وعطفاً على كل ذلك وتأكيداً له، فإننا محتاجون بالمثل إلى تدعيم التعاون الدولي والاستفادة من الآخر الغربي المتقدم، ولا سيما في مجالات العقلنة والتنظيم والشراكة والتخطيط والمَأْسَسَة وأساليب ومنهجيات تدبير هياكل ومؤسسات ودواليب الشأن التربوي والثقافي والعلمي والجمعوي والاجتماعي العام، وإدارة وإنجاح مشاريع الإصلاح والتنمية والتحديث، وكذلك ترشيد مجمل مسارات البناء الديمقراطي المتوازن السليم.

غير أن ذلك لا ينبغي أن يسقطنا ــ كما هو واقع بالفعل في جل سياقاتنا العربية ــ في دوامة تقليدية ساذجة أو تبعية إمّعية لبعض توجهات أو خطط أو توصيات بعض مراكز أو مؤسسات أو مصادر القرار المهيمنة على الصعيد العالمي، وإنما يجب أن يتم ذلك وفق وعي نقدي حضاري «**مستقل**» مدرك لمقومات وخصوصيات ومطالب الذات والآخر، ما يجمع بينهما وما يمايز، وما يُقرب وما يُباعد أحيانا من ظرفيات وشروط ومتغيرات سوسيوتاريخية معينة.

٨ ــ «سوسيولوجيا نقدية للممارسة السوسيولوجية»

ولذا فقد دعونا في هذا الشأن، وفي غير ما مناسبة متاحة، إلى اعتماد ما وسمناه بـ «**منظور نقدي متعدد الأبعاد**» يرمي إلى تفكيك نقدي لمختلف ميكانيزمات ومقومات «**الذات / النحن**»، وكذلك «**الآخر/المغاير أو المختلف الغربي**»، ثم «**اللحظة التاريخية والحضارية**» التي تشكل بوتقة خاصة لتفاعلهما، صراعاً أو تبادلاً أو تكاملاً،

حسب مقتضيات ومحددات الظرفية المعنية. وإذ تتعدد المكونات المشار إليها، والتي يتجه إليها هذا النقد، فإن مجالات وأدوات اشتغاله تتعدد بدورها. فهو يرمي إلى أن يكون إبستمولوجياً وسوسيولوجياً وثقافياً وحضارياً تتكامل فيه المنظورات والرؤى وزوايا التخصص والاهتمام النظري والعملي في آن. وذلك في إطار سيرورة بناء «**سوسيولوجيا نقدية للممارسة السوسيولوجية**» في سياقنا، وبما هي مطلب معرفي وضرورة اجتماعية وحضارية للعقلنة والتوجيه والتقويم والترشيد.

إنه بالضرورة، نقد حواري منفتح إيجابي بناء ومنتج يؤكد اعتماد قيم ومبادئ ومسلكيات تثمين الرأي والرأي الآخر، والتعاون والتسامح ونبذ التطرف والعنف والانغلاق والتخندق المتصلب في المعتقد أو الموقف أو دوائر المطامح أو المصالح الخصوصية، والتقبل المستوعب لكل أنماط التنوع والتعدد والاختلاف بين البشر والثقافات والحضارات، والارتقاء بها من مجرد أوضاع الصراع أو التناحر ــ سواء كان ذلك في حدوده الطبيعية المقبولة أو المبررة أو عكس ذلك ــ إلى مستويات التدافع أو التنافس المعقلن والحوار المبدع المنتج الخلاق.

وهكذا يبدو لي، وانطلاقا مما سلف ذكره، أنه لكي «**يكون المرء عالم اجتماع**»، ولكي نكون نحن جميعا «**أصدقاء حقيقيين للسوسيولوجيا**»، فإنه يتوجب علينا تدعيم المنظور النقدي المنوّه به أعلاه، والسعي المنهج إلى امتلاك وعي نظري وممارسي بمختلف المتغيرات والشروط والمستجدات والتحديات والرهانات المعرفية والقيمية والحضارية التي تميز هذه اللحظة التاريخية المعولمة، والتي تتطلب منا مهامنا ومسؤولياتنا والتزاماتنا الفكرية ــ كسوسيولوجيين أو مثقفين بشكل عام ــ ضرورة الاجتهاد في توجيه مساراتها بالعمل النقدي الإيجابي الجاد. وذلك بغرض «**أنسنتها**» وجعلها أكثر أخلاقية وعدالة كونية جامعة، لا إقصاء فيها ولا عنصرية ولا مفاضلة تمييزية فيها بين الأمم والمجتمعات والشعوب.

* * *

هذا أيها الأفاضل الأَعزّاء، نزر يسير من زخم هائل محتدم مما يسكنني من هموم واهتمامات وهواجس، ومما انتزعت بعضه من مسار حياة ذاتية واجتماعية ما فتئت تنوشها، على امتداد عقود، تجاذبات مؤرقة من أوضاع ومشاعر الأمل والألم، والطموح والإحباط، والرضى والتذمر، وبعض من بشارات التفوق والتألق وكثير من الهزائم والانكسارات والخيبات. وكل ذلك لأجدني، بعد مسيرة عمر قلق مضطرب من التربية والتنشئة وتشرب ثقافة وقيم وتطلعات جيل مرحلة الاستقلال، «**هوية عجيبة غريبة التكوين والتركيب**» تتفاعل فيها بشكل أكثر عجباً وغرابة شخصية الطفل الفقيه الذي كنته حينذاك، ثم مواصفات ذلك التلميذ المتفوق الذي أصبح يُداعب الأدب والفن والشعر بخاصة، وهو في مبتدإ تعليمه الإعدادي، ليتنطع بعد ذلك لدراسة الفلسفة ومباحثها

المدرسية بحماس منقطع النظير وهو لم يُنه بعد مرحلة تعليمه ذاك، ثم ليحط الرحال، في سبعينيات القرن الماضي في رحاب السوسيولوجيا والعلوم الإنسانية، هو ورفقة له من رجال التعليم ممن كان يزاوج بعضهم، في صبر وتحمل وأناة، بين العمل والدراسة في آن.

وها أنذا، أيها الإخوة الكرام، أحضر بينكم في هذا المحفل العلمي البهيج من دون أن أدري ما إذا كنتم تتمثلون هذا الحضور وأنا في جبه فقيه أو أديب أو فيلسوف أو مربّ أو حامل لهوية الانتماء إلى علم الاجتماع؟ ولكني أصدقكم القول فأؤكد لكم أنني قلما طرحت على نفسي ما يشبه هذا التساؤل، إلا في بعض حالات استحضار هموم الذات ومتاعبها والآنات المؤثرة الحاسمة في تطورها وانتقالها من حال إلى حال. ربما لأنني أعتبر ذلك مآلاً طبيعياً لسيرورة تكوين وتربية وثقافة ووعي جيل أو أجيال بكاملها. ولا أكتمكم أيضاً ــ وقد يختلف بعضكم معي ــ أنني لا أعتبر ذلك التعدد في «**هويتي**» تنازعاً صراعياً في الأدوار والمهام والمواقف ومستويات وضروب الإدراك والتصور، أو عوائق معرفية واجتماعية، بقدر ما أحاول عيشه كإمكانية لتآزر وتكامل الرؤى والقدرات والقابليات وكفايات التعدد في المرجعيات ومصادر المعرفة ومناهج وأدوات التفكير والبحث وإنتاج الفهم والدلالة والمعنى في مختلف حقول العلم والأدب والفن والإبداع بما يفترض أن يجعل من هذا التعدد قيمة مضافة إيجابية لا تشتتاً مفقراً للمنتوج والجهود.

لست أدري، أيتها الثلة الطيبة من «**أصدقاء السوسيولوجيا**»، ما إذا كانت مساهماتي الفكرية المتواضعة ــ رغم أنها لا تشكل سوى جزء قليل هو فقط ما استطعت نشره مما تراكم لدي على امتداد أكثر من أربعة عقود خلت ــ يمكن أن ترقى إلى مستوى المداخل الأولية للإجابة عن السؤال ذي الطبيعة الإشكالية الوجودية، والذي أوردته في مستهل خطابي إليكم هذا: «ما معنى أن يكون المرء عالم اجتماع في أيامنا»؟ وهل تشفع لي معاناة الاكتواء بحرّ هموم البحث والعمل التربوي والثقافي، وأنا الأعزل إلا من سلاح الصدق وإخلاص النضال والضمير والانتصار لقضايا المبدإ وللوطن والإنسان، في أن أحظى منكم بهذا التكريم المعبر البهي، وأنا أشخص أمامكم «**هوية متعددة الأبعاد**»، أو عالم اجتماع، أو واحدا منكم أيها الخلّص الأفذاذ من «**أصدقاء السوسيولوجيا**»؟ لأنتم، وهذا الحشد النوعي من الحضور الأجلّاء الأحرياء بالجواب، وبمنحي حظوة وشرف الانتماء إلى علم الاجتماع: فضاء للتفكير والعمل والانهمام، وقدراً أو مصيراً لا محيدَ عنه!

غير أنني أود ألا تفوتني هذه الفرصة كي أُجزل لكم، ولكل من ساهم في هذه المبادرة الطيبة، كثير الشكر وعميق الامتنان، وأنتم تؤسسون بهذا الفعل المتحضر لتجذير «**ثقافة الاعتراف**» في بلدنا، متجاوزين بذلك واجبات وأدوار بعض المؤسسات الرسمية والأكاديمية والتكوينية التي يعجز بعضها ــ على ماله من إمكانات ــ عن القيام بأي التفاتة اهتمام أو تكريم، وبخاصة لتلك النخبة من المثقفين والباحثين والمربين والمبدعين الذين أفنوا فيها أعواماً من أعمارهم قياماً بالواجب وخدمة لأهداف وطنية فكرية وتربوية واجتماعية نبيلة. كما أرجو أن أنتهز هذه المناسبة أيضاً لأمحض ذات الشكر وعميق التقدير لأولئك الفضلاء

الذي تجشموا عناء الحضور إلى هنا ليدلوا في حقي إما بشهادات أو بدراسات أو بخطابات التكريم أو بكلمات محبة صادقة في تعداد وامتداح ما يروني أهلاً له من شيم ومناقب وقيم فكر وإيمان ووطنية وتضحية وإيثار ونضال. وكل أملي هو أن أكون، بالفعل، ممتلكاً لبعض الاستحقاق لما أحاطوني به، في خطابات بوحهم العفوي الجميل، من عواطف ومشاعر الامتداح والحب والإعزاز والاحتضان الفكري والإنساني النبيل، ما يوقظ في الذاكرة والعقل والوجدان جذوات التحفّز والعناد والإصرار على المواصلة والاستمرار، رغم خذلان الجسد المُعتلّ، وشماتة الظروف، وتنكّر الحظوظ، وجور وتعنّت هذا الزمن العربي الغاشم الرديء!

ختاماً

بوركتم أيها الشباب الواعد السَّني الطّموح والحماس، يا من أوقد في مراتعنا المقفرة «ربيعاً عربياً» مباركاً، نأمل جميعنا في أن ينقدح، غداً أو بعد غد، ثورة صيف خيّر وافر العطاء. وبودي أن أبلغكم رسالة هي شذرة فقط مما يعتلج في الدخيلة من هموم حارقة مؤرقة، فأقول لكم همساً حميمياً أو بوحاً صُراحاً : إذا كان أساتذتنا الأجلاء ممن سبقونا من أجيال المفكرين والمربين ورواد علم الاجتماع قد تمكن بعضهم من اختطاف نار المبادرة من أتون واقع مشاكس عتي، ليجلبوا منها قناديل مضيئة هادية لنا في حُلكة الطريق ومتاهات السير، وإذا كان بعض أبناء جيلي ــ هؤلاء الذين تؤثث نخبة منهم ببهاء حضورها معنا هذه «**اللّمة**» الفكرية الباذخة العبقة ــ قد استرقوا، عنوة، أقباساً نيّرة من صنيع الأولين لمواصلة الجهد والمسير، فإن علينا، أيها الأوفياء، ولكي نكون «**أصدقاء حقيقيين للسوسيولوجيا**»، وجديرين بالانتماء المستحق إلى القيم والمبادئ والأخلاقيات الأثيلة للعلم والثقافة والإبداع، أن نكون في مستوى حمل المشعل الذي تسلمناه من أيدي روادنا الأوائل، وفي مستوى تحمل مسؤولية التقدم به نحو الأمام، رفداً للمشاريع التي اجترحوها في مجالات الفكر والنضال، وإثراءً لما خلفوه لنا من تراكم مثمر مفيد، وفاء بالعهد وتقديراً للجهود واعترافاً بجميل الريادة والسبق. لعلنا ــ في حمأة رعونة ابتذال الثقافة والفكر وفورة تمجيد الرواسم الخادعة وابتداع الشهرة وتصنيع النجوم والأبطال والعلماء والخبراء، بحق أو من دونه، في هذا الزمن العربي المتشدد العنيد ــ نظفر بالتماعات نور مجنّح ثائر، تنازل العتمة في دروبنا، تفتح للأفجار الوافدة كوات فرح في جدار انحطاطنا المانع، لتعانق شعوبنا المشوقة إطلالة أصباح بهية واعدة باحتضان مستقبل دافئ جميل هو ترنيمة بداية الزحف المقدس نحو احتضان القيم والمبادئ والأهداف الخيرة النبيلة للوطن والأمة والإنسان!

فبوركت لكم النيات والجهود أيها الأعزاء، وسدد الله لكم بتوفيقه الخطى والمساعي! □